

موقع المثقفين ودورهم في معالجة أزمة الديمقراطية في الوطن العربي

الدكتور عمر بن سالم

للثقافة العربية ثوابت هي:

- القيم البدوية بأعرافها وفنونها وآدابها كما كانت في الجزيرة.
 - اللغة العربية بأعجازها وبيائها وما نقلته من أشعار وأخبار.
 - الدين الإسلامي ككنايه وسنته وإجماع الصحابة عليه.
 - أما الروافد فقد شملت كل هذه الأصول وتفاعلت معها بدرجات متفاوتة في الانصهار والهضم.
 - ومن هذه الروافد نذكر بالخصوص:
 - القيم الحضريّة والنظم التشريعية والاداريّة.
 - العلوم اللغوية والدينية بفروعها.
 - العلوم العقلية والرياضية بنظرياتها وتطبيقاتها.
 - الفنون والصناعات العمرانية والمدنيّة.
- وقد كانت الثقافة العربية بأصولها وفروعها، بقيمها ومنجزاتها، ثقافة مشعة مؤثرة، وليست مجرد ثقافة عبور بالنسبة لمعتنقيها^{١٥}.

فقد أخذت الشعوب التي دخلت في الإسلام بالأصول التي ذكرناها وتمتتها على الأرضية الحضارية والعرقية التي كانت تميّزها، فانصهرت فيها، وأصبحت لها نفس الأساليب المعيشية ونفس النظرة إلى الكون والحياة. يجمع بينها هذا النمط المثالي للثقافة العربية الإسلامية، ويوحّد مواقفها وردود فعلها، كلما اقتضت الضرورة ذلك.

وظلّ أمر هذه الثقافة فاعلاً طيلة ثلاثة عشر قرناً. وإن تحوّلت السلطة من أيدي العرب الفاتحين إلى أيدي غيرهم من الأجناس، ومن الانتفال من مراكز الإِسْباع والنفوذ بين المشرق والمغرب عبر العصور.

ذلك أنّ السلاطين والأمراء والولاة الذين تعاقبوا على مصير الأمة العربية الإسلامية لم تكن لهم ثقافة بديلة لتلك التي اعتنمتها هاته الشعوب، رغم جمودها وخفوت إسعاعها في القرون المتأخرة.

الصدمة:

أمّا في العصر الحديث، وبعد استلاء الدول الأوروبية على

تحديد الثقافة:

الثقافة في علم الأجناس هي جملة الأنماط السلوكية المشتركة بين أفراد مجموعة من البشر، مكتسبة بالتمرس والتهديب والتعليم.

والأنماط السلوكية هي كل ما يصدر عن الأشخاص من أفعال وأقوال وآراء ومواقف^{١٦}.

وهذا السلوك الإنساني يخضع بدوره إلى عوامل وراثية وبيئية مشتركة تجعل ردود الفعل المنظرة من أفراد هذه المجموعة متجانسة إلى حدّ ما^{١٧}.

فالثقافة بهذا المفهوم الأنثروبولوجي توحد أسلوب العيش والنظرة إلى الحياة، إذا كان المجتمع الذي تنسب إليه مجتمعاً متأصلاً في ماضيه منسجماً مع حاضره، ومستجيباً لشروط التطور الذي ينتظره في المستقبل^{١٨}.

فهل تصحّ هذه الأوصاف والشروط على المجتمع العربي في وضعه الراهن؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نحلّل أنماط الثقافة العربية وعناصرها، حتى يتضح لنا فهم المقصود من السؤال في حدّ ذاته.

أنماط الثقافة العربية:

للثقافة العربية نمطان: نمط مثالي يعتبر الأرضية السلوكية للمجموعة العربية واحدة من الخليج إلى المحيط. ونمط واقعي يشكل التنوع ضمن هذه الوحدة المتميزة من الدّاخل والمتجانسة في الظاهر. وهو ما يعبر عنه بتعدد الذاتية عند الباحثين^{١٩}.

وليست هذه التعددية الدّاخلية مجديدة على ثقافتنا العربية. فقد قبلتها وتمثلها منذ اليوم الذي خرجت فيه من الحجاز لترتاد أصقاعاً جديدة، وتفاعل مع مجموعات بشرية أخرى غير العدنانيين والقمطانيين.

ويمكننا هنا أن نتوقّف قليلاً عند الأسس الأصليّة التي أقيمت عليها هذه الثقافة، ثمّ عند الروافد التي مبرّزت أنماطها الواقعية.

بلداننا ومقدّراتنا، فقد أخذت كفة الثقافة العربيّة الإسلاميّة تحفّ، وبدأ نفوذها يتقلّص في الواقع وفي الضمائر ولولا نفحة من الاعتزاز بما كان لها من ماضٍ مجيد شجّدت العزائم، وحركت الهمم، لرأيناها قد ولّت الأدبار، كما ولّت جلّ الثقافات السابقة لها.

ذلك أن الثقافة العربيّة التي اكتنفتها هذه المرّة هي ثقافة حالة عنفوان. ولها من القوّة ومن الاعراء ما يجعلها متغلبة إلى حين.

وأولّ من دعا إلى اعتناق هذه الثّقافة العربيّة الجديدة هم النخبة المتعلّمة في العالم الإسلامي خلال القرن الماضي. كانوا مهوورين بالمبادئ التي بنيت عليها والاجازات التي تحققت على يديها^(١٦).

ساعة من الانبهار لم يسلم منها حتّى دعاة الإصلاح من مشائخ الأزهر والزيوتنة، الذين أتيحت لهم فرصة زيارة أوروبا والاطلاع على أحوالها. كلّمهم نادوا بالأخذ عنها، وإن اختلفوا في كيفية الأخذ ومقداره^(١٧).

كانت مبادئ العدل والحرية والمساواة تعريهم.

وكانت الصناعات والمخترعات تبهرهم.

وكانت القوّة الاقتصاديّة والعسكريّة والتنظيمات الإداريّة، تتركهم يملّون بنهضة إسلاميّة تعيد للأمة ماضيها الأغرّ، وتعدّد لدولة الإسلام عزّتها وصولتها ومناعة جانبها^(١٨).

وطالت بنا ساعة الانبهار أكثر من قرن. فقادتنا وزعماءنا لا يرون حتى الآن طريقاً للخروج من التخلف غير الطريق الأوروبيّة.

هم يرغبون في الحصول على الانجازات الأوروبيّة من شعوبهم، ولكنهم لا يعطونهم الحقوق الاجتماعيّة التي أعطتها وتعطيها أوروبا لمواطنيها.

هم يطعمون في التقدم. ويدعون الناس إلى الأخذ بأسباب التطور على غرار أوروبا، ولكنهم يكتبون الحريات ويخنقون طموحات الجماهير في التقارب والوحدة.

هم حكّامنا هو البلوغ إلى درجة من القوّة الماديّة التي تجعل ساحتهم مهيبّة. لكن مهيبّة من طرف من؟

وإذا نحن تركنا جانبي الانبهار والتقليد، وجدنا أن أصل الدخول في هذا الدور الجهنمي للتنمية على غرار النموذج الأوروبي وبوحي من القوى العظمى، إنّها يعود أساساً إلى ما تلقاه المسؤولون عندنا من تعليم وما تعودوا عليه من مناهج للتفكير جعلتهم عاجزين عن الاستغناء عمّا تعودوا عليه. وحتى عن تصوّر بديل قومي له بما في ذلك اللغة.. وهكذا الثقافة. إذا كانت أصيلة أُنجبت أصيلين، وإذا كانت نغلة أُنجبت أنغلاً مشوهين!

أنواع المثقّفين العرب:

لا يمثّل المثقّفون العرب طبقة متميّزة لها خصائصها ودورها في الإنتاج. ليس عندنا إلاّ جماعة من المتعلّمين^(١٩). إذا نحن

حاولنا نصنيفهم سواء الذين تلقّوا تعليمهم في مدارس الغرب وجامعاته قبل الاستقلال، أو في مدارسنا وجامعاتنا بعد ذلك - وهل هنالك فرق بين هذه وتلك ما دامت المناهج متشابهة، واللغات المستعملة واحدة. والمخابر واحدة. والروح المسيطرة على أطرها متجانسة - إذا نحن حاولنا تصنيف هؤلاء جملة، حسب تكوينهم ونوعية الوظائف والمهن التي يشغلونها بعد التخرّج، فإننا نصنّفهم في الفئات التالية:

١- الأساتذة والمربّون في قطاعات التعليم بدرجاتها.

٢- الكتاب والصحفيّون بما في ذلك الأدباء.

٣- السياسيون والاداريون.

٤- أصحاب المهن الحرّة بما فيهم من فنّانين ورسامين.

٥- الفنيّون والخبراء.

٦- الضباط بمختلف الدرجات والأرزاء.

٧- الباحثون والعلماء من أهل الاحتصاص.

من هذا التصنيف يظهر لنا أنّ هؤلاء جمعاً ينسمون إلى قسمين بارزين:

قسم مؤثّر على الساحة الثقافيّة مباشرة أو عن طريق غير مباشرة، ويدخل في عددهم الأصناف ١، ٢، ٣، ٤.

وقسم منفذ لا تأثير له يذكر إلاّ في الحالات الاستثنائية ويدخل تحته الأصناف ٥، ٦، ٧.

وفي كلا القسمين، الأول والثاني، من هو واع بدوره القيادي في مجتمعه، ومنهم من لا وعي له بذلك الدور لسبب أو لآخر^(٢٠). وهكذا تتقلص رقعة العمل المتّزم بين هؤلاء المثقّفين نقلصاً يزداد مع الأيام صيقاً. ولا ينجو من داء التواكل واللامبالاة وحتى اليأس أحياناً، إلا من رحم ربك من أصحاب المبادئ. وهم أقل من اللبلب في عالم تتغلب فيه المطامع الشخصية على المطامع القوميّة، وتسود فيه الأنانيّة على بقية الصفات.

ولكي ندلل على صألّة دور المثقّفين الآن في مجتمعا هذا المذبذب، فإنّه لا مناص لنا من أخذ كل طائفة من هؤلاء على حدة لتحليل عناصر تكوينها وذكر موقعها من مركز الفعل، وتحديد قوتها في التسطير والتأثير.

١- الأساتذة والمربّون:

ثقافة هؤلاء مزدوجة عربيّة أجنبيّة. وكلما ازدادوا ارتقاء في الدرجة العلميّة، مالت بهم الثقافة الغربيّة على حساب الثقافة الأم. وكلما ارتقوا في سلّم الوظيفة، ازدادوا التصاقاً بالسلطة في بلدانهم.

أما دورهم في وضع الخطوط العامّة للساسّة التعليميّة فقد يكون مفروضاً من الخارج، وقد يكون مفروضاً من الداخل.

أ- فإن كان مفروضاً من الخارج تغلب عليه الانفتاح فأصبح ريشة في مهبّ الثقافات تعصف به ريح الشرق طورا وتهكّه ريح الغرب أطواراً.

ب- وإن كان مفروضاً من الداخل كان التوقّع الضيق والتعصب لبني الجلدة والبلد.

أما الماهج فإنّما أن تكون عتيقة متحجرة تعتبر العلم

والتحربة حكراً على السلف الصالح، وإمّا عصريّة جدّاً بسها
وبين أهلها قطيعة وساز.

يقى هذا الوسط الذهبي الذي يجلّم به البعض، ولا بدركه
بسبب التلوّن في السياسة والتبدّل الظرفي غير المخطط للبرامج
والتغيير الفجائي في المسؤولين والمواقف.

٢- الكتاب والصحافيون:

ثقافة معظم هؤلاء مزدوجة أيضاً ولغتهم كذلك. أمّا
أساليبهم وطرق العرض والتحرير عند أغلبهم فهي غربية أكثر
منها عربيّة وهم على صعب الممارسة والالتاء ثلاثة أصناف:
أ- رسميون، يطفون باسم السلطة ويكتنون لها، فهم لها
أتباع ولا خير في كتاب وصحفيين لا يكتبون إلا بالطلب، وفي
الاتجاه الذي يعيّه لهم الساسة ويدعونهم إليه، ثم بالقدر الذي
يريدون.

ب- معارضون مغضوب عليهم ومنوعون من التعبير الحرفي
عامّة الأقطار العربية تقريباً. تحاصرهم السلطة في الدّاخل
بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فيهاجرون. وفي هجرتهم إلى
الأشقاء يسخّرون أو يكتمون حتى يتعودوا على الصمت. فإن
ساقهم الحظ إلى بلاد أجسبه، انقطعت أصواتهم فلم تصل إلى
بلدانهم. فإن طال بهم الصّباح، ولا من يجيب، بدّلوا اللّغة،
ورطنوا مع الرّاطنين^(١١١).

ج- أمّا الصنف الثالث فهو الصنف الذي يدعي الموضوعية
والحياد. وهم في الغالب جماعة لا يحتاجون إلى أعلامهم في
الحصول على العاش. فهم ينظرون إلى الصراع القائم من أعلى
الرّبوة. ولا ينحدرون إلى المعترك إلا عندما يكون المكان وثيراً
وأميناً. وعندما تلفهم الدّوامة يتخدّرون ويتخمّرون،
ويصبّحون ملكيين أكثر من الملوك!

٣- السّياسيون والاداريون:

كان من الممكن أن أفضل هذين النوعين، ولكن التداول
بينها على المناصب السّامية وكراسي المسؤوليات جعلني لا أفرق
بين المنتمين إليها في التصنيف، بسبب أصل التكوين ونوع
التعليم.

وهم عموماً من الفئة المنبهة، ومن أصحاب اللسانين
والثقافتين في كلّ البلاد العربية بلا استثناء.
أغلبهم منحدر من الطبقة البرجوازية، والأرستقراطية
أحياناً، ومنهم أيضاً من هو من أرومة شعبية، ولكن الظروف
خدمته، فوصل إلى ما وصل إليه إمّا عن طريق التحزّب أو عن
طريق التعصّب أو عن طريق الإصهار...

أولئك وهؤلاء عمدة الثقافة الغازية، وعلى أيديهم تتغلغل
وتنتشر وإيمانهم بالأصالة ضعيف، وتشبّثهم بالنّماذج الغربية في
التربية والتعليم ثم في التنمية والتقدّم جعلهم لا يعتدون بالواقع
القومي، ولا يؤمنون بالإمكانات الذاتية لشعوبهم إلا بعد أن
ترجم إلى اللّغات الأجنبية، وتجرب في أمريكا أو في غيرها من
البلدان، وتعطي تبعاً لذلك تأشيرة الدّخول^(١١٢).

نكران هذه الطائفة لترات قومهم لا يجد تفسيراً إلا في
مركبات النقص التي تكوّنت لهم في أوروبا.

ولكن هل تعتبر المركبات النفسية أعداءً مقسولة؟.

وهذه الطائفة من المثقفين المنبتين هي المسؤولة عن تبعيتنا
المتعدّدة الأبعاد للغرب أو للشرق. وهم بالتالي حجر العثرة الذي
يعطل مسيرتنا القوميّة التّوافقية إلى التحرّر والوحدة
والإبداع^(١١٣).

٤- أصحاب المهن الحرّة وأهل الفن^(١١٤):

هؤلاء أيضاً تتقّفوا بالثقافة الغربيّة، وتربّوا عليها، عدا فئة
قليلة من بقايا الجامعات الوطنيّة ولكن هذه الفئة ما فشت أن
انجرفت مع التيّار لسببين اثنين:

أ- لأنّ الإدارة، بصفة عامّة، تهتم حقّ أولئك المتخرّجين
من الجامعات الوطنيّة، وتعتبر شهاداتهم غير عصريّة.

ب- لأنّ «التبرّج» بالمرصاد لكل أصحاب المهن الحرّة من
ذوي الدّخل الوفير. ومن كان في بلادنا صاحب أموال فإنه لا
يسلك في الحياة إلا مسلك المحظوظين.

هم في واد وبقيّة الشعب في واد. لا رابطة التضامن
تستحتمهم ولا حتى صلة الرّحم.

ومن هؤلاء، الأطباء والمهندسون المعاريون والمقاولون
والصيادلة ورجال الأعمال وأصحاب البنوك والشركات
والمالكون للمصانع والوكالات، والماسكون بحظوظ التوريد
والتصدير وكبار التجار، وأصحاب العقارات والفنادق ومن
أغفلت في سائر قطاعات الإنتاج والاستغلال والخدمات وإن
كانت متصلة بالفن^(١١٥).

وكلّهم إلا القليل من الاستثناءات لا هم لهم إلا الربح
والإثراء على حساب الغير مهما كانت رتبته في السلم الطيفي
للمجتمع الذي ينتمون إليه.

يناصرون السلطة، والسلطة تنصرهم وتحميهم، وتحمي
مكاسبهم، ولو كانت حراماً في نظر الجميع.

٥- الفنيون والخبراء:

هذه الفئة الخامسة مسكوت عليها في مجتمعاتنا العربية لأنّ
أفرادها يعيّنون في الغالب كموظفين في أجهزة الدولة، ولا يصل
بعضها إلى مراكز النفوذ إلا في الحكومات التي تعتمد في تصريف
شؤونها المعقّدة على «البيروقراطيين» لأنهم أسلم عند الانتداب
من المنافسين السّياسيين^(١١٦).

وثقافة هؤلاء تكاد تكون الثقافة الغربية المثالية التي لا
تعرف الحياد عن الخطوط والجداول والأرقام. وهم غالباً من
خريجي معاهد التقنية والتصرّف أو من كليات العلوم الصحيحة
وشبه الصحيحة أو كانوا وما يزالون يتمّون تعليمهم كلياً أو
جزئياً في البلاد الأجنبية. أمّا دورات التدرّب فهذه لا تتم
أحياناً إلا في الخارج، وبالناهج الأجنبية، وعلى الآلات
والأجهزة الأجنبية، بحكم امتلاك بعض بلداننا للتكنولوجيا في
بعديها النظري والتطبيقي.

٧ - الباحثون والعلماء :

هذه الفئة ما تزال قليلة العدد في وطننا العربي، وينقصها إلى الآن الدعم المادي والأدبي.

وثقافة الأغلبية الساحقة من هؤلاء ثقافة غربية لا جدال فيها، وكذلك أيضاً أهواؤهم ومناهجهم ومخترعاتهم..

من هؤلاء من أي أن يتفاعل مع الواقع القومي ففقد مقدرته على التجذر وعلى التحليل والتعليل. ومنهم من لم يجد ما يساعده على الفعل في بلاده فهاجر إلى الخارج وفضل الدولار على الدينار^(٢٠). أمّا البقية الباقية فقد ركنت إلى أرض الوطن إما بسبب الروابط العائلية أو بسبب ملاقوه خارج الحدود من شعور بالغرابة وإحساس بالاحتقار والمهانة.

دور هؤلاء في بلدانهم كدور الفنيين في بوتقة الحياة الإدارية. طموحهم شخصي أكثر منه قومي.

تنقصهم الصفات الثابتة للعلماء. فهم في الغالب من المتعاليين المتكورين يستهينون بالجميع لأنهم يعتبرون أنفسهم فوق الجميع^(٢١).

منهم من وجد لنفسه دوراً في حركية النظام، فتصدّر رئاسة جامعة أو إدارة معهد أو كلية. ومنهم من رضي بالروتين، واكتفى بالتحبير والمطالعة والتذكير. تراهم في الندوات المختصة جداً لا يشبعون من مضغ الكلام والردّ بالخصام على الخصام وعندما تنتهي الأشغال يعودون إلى بيوتهم المكيفة هائلي الضائر مرتاحي البال. علاقتهم بالشعوب التي ينتمون إليها كعلاقة الطبيب بمرضاه. واهتمامهم بمشاكل أقوامهم كاهتمام المخبري بالجرائم التي يعالجها.

أمّا تأثيرهم على الساحة الثقافية فهو رهين الظروف والصدف. مثلهم مثل عباقرة الأدباء. وهل يختلف أولئك عن هؤلاء؟

وسائل التعبير وطرق التأثير :

بعد استعراض هذه الأنواع المتواجدة عندنا من المثقفين، ننتقل الآن إلى استعراض بعض وسائل التعبير وطرق التأثير المتوفرة لهذه الأنواع على الساحة الثقافية.

قبل الدخول في تعداد هذه الوسائل يجدر بنا أن نبيّن بينها منذ البداية حتى لا نحسب على الثقافة ما ليس منها، وما ليس لها.

ذلك أن الوسائل على نوعين:

نوع حكومي ملتزم بسياسة البلاد. وتدخل فيه الجرائد والمجلات الرسمية وشبه الرسمية، كما تدخل فيه الوسائل السمعية والسمعية البصرية التي هي حكر على النظام، وهذا النوع الأول: وإن اتّصفت بعض برامجها بالثقافية فإنه لا يجدم قضية الديمقراطية في الوطن العربي. بل يمكن القول بأنه إرهاب للديمقراطية وتشويه لجوانبها النيرة. وقد بدأت الجماهير العربية الآن تفرّق بين أنواع أجهزة الاعلام، وتعرّف على مناهج كل نوع وطرقه الخاصة به في التأثير. وسوف لا نعتبر هذا

والفنيون والخبراء هم المسارب التي تهبّ منها الرياح في مجتمعنا العربي. هم الذين يوصون بإرسال الطلاب والمترشحين، وهم الذين يقدمون مطالب استيراد المخابر والتجهيزات، وهم الذين يكتبون التقارير في استبدال المناهج واقتناء البضاعة من الخارج، ولو كان ذلك على حساب البضاعة المحلية والانتاج الوطني أحياناً^(٢٢).

وهؤلاء الخبراء تجدونهم في كل أجهزة الدولة ودواليبها، كما تجدونهم في مكاتب الشركات ودواوين الوزراء. ولا تخلو منهم إدارة، ولا يغيبون عن مكان. لو كانوا دائماً من مستشاري الخير، لحفّ حملهم، ولكنهم يوظفون في الغالب لإثقال كاهل الرعية والدفع بها إلى ما لا تريده جدواهم في كثرة أرقامهم وملفاتهم. هم أدوات تبرير وتنفيذ، وإن كانوا غير واعين بذلك أمّ الوعي. حياتهم عمل إداري وتقني واستهلاك، عطلهم أكل وشرب. بينهم وبين أهليهم قطيعتان: قطيعة الأجيال وقطيعة التغرّب. وهل يرجى من المنبّت خير؟

٦ - العسكريون الضباط بمختلف الأسلحة والرتب:

هؤلاء قوم تعلموا في المدارس الثانوية، ثم تخرجوا في الكليات والمعاهد المختصة وغير المختصة سواء داخل أقطارهم أو خارجها.

ثقافتهم عسكرية، إلا في جذورها الأصلية. وطبعهم كذلك، ربّما حافظ بعضهم على هذه الجذور بعد التخرّج، وربّما أتلفها في طريق التكوين ظروف المعاش. ومستوى الرتبة هي التي تتحكّم في أرضية هؤلاء الثقافية. فإمّا إلى ثبات الكيان، وإمّا إلى الانبئات.

والضباط في ظروف الاستقرار والأمن أدوات مراقبة وأجهزة نظام. أمّا إذا انقطع الروتين فهم بين رجلين: ضابط واع بمسؤوليته متجذّر في ذاته له طموح وغيره على وطنه وقومه، وهذا النوع غالباً ما يكون من المشكوك في ولائهم للسلطة القائمة. فهو مراقب، وإن تحركّ اتهم بالخيانة فمصييره الإعدام أو السجن أو الإحالة على المعاش. وضابط لا تستهويه القيم، يجري وراء الأوسمة والمناصب فهو يلهث وراءها على حساب المبادئ وهذا النوع صنيعه الحكّام، يرتقي في المراتب ويحصل على كل الامتيازات بقطع النظر عن كفاءته وجدواه^(٢٣).

وليس لهذا النوع من المثقفين من تأثير على الساحة الوطنية أو القومية إلا في الظروف الاستثنائية: ظروف الانقلابات العسكرية واندلاع الحروب. وهي ظروف طارئة قد تدفع بعجلة التطوّر إلى الأمام، وقد تسمرها في مكانها بأيد من حديد.

والمرآنة على دور هؤلاء في ظروفنا الحالية هو ضرب من الاستهتار بالحقوق الديمقراطية لشعبنا وخذلان له في طموحاته القومية. خاصّة وأن الانقلابات السياسية منها والعسكرية، قد أصبحت تنظم الآن من الخارج، ولفائدة القوى الامبريالية التي تنظمها وتدعمها بعد النجاح لضروراتها الأمنية وتوسيعاً لرقعة هيمنتها ونفوذها.

القسم الأول عنصراً من عناصر رقعة النضال، لأنه ينتمي في الواقع إلى الرقعة المقابلة، رقعة الهيمنة وكبت الحرّيات وقلب الحقائق. ومصداقية هذا النوع آخذة في التقهقر والانحلال بسبب الوعي المتزايد والطموح العنيد في البلوغ إلى التحرّر والانعتاق^(٣٢).

أمّا النوع الثاني فهو الجرائد والمجلات الحرّة التي تعبّر عن الرأي المعارض. وهذه في الغالب لا تجد الدّعم المادي والأدبي إن وجدت واعطيت لها رخصة الصدور.

وينقص هذا النوع أيضاً زيادة على حرية الصدور حرّية التعبير سواء هاته التي يمنحها قلم الرقابة، أو تلك التي يمنحها الكاتب لنفسه إذا وجد الشجاعة الكافية لمعالجة القضايا الشائكة المتعلقة بالسياسة والدين والجنس في مجتمعه المحرّب المتعصّب المكبوت.

والنوع الثالث من هذه الوسائل هي الكتب والنشريات. وحكم هذه كحكم الصّحف والدوريات. فإنها لا تجد الطريق إلى النشر إلاّ عندما تكون مؤيّدّة أو مسالمة للنظام القائم. فإن لم تكن كذلك تعطلت، وطال بها الانتظار. وإن قدر لها يوماً أن تطبع خارج القطر المعني بها فإنها تحجز عند الدخول، وربما حجز معها صاحبها بالمناسبة.

أمّا الوسيلة الرابعة فهي المسرح:

والمسرح في بلداننا على نوعين: المسرح الموالي للأنظمة القائمة ويلتقي هذا النوع التأييد والدّعم من سلطة الإشراف. والمسرح المعارض، وهو مطارد على مستوى النشر وعلى مستوى التمثيل. إذ تخضع رقابة التأليف وقع تحت سيطرة رقابة الإخراج. ويمكن القول بأنّ الأغنية تعامل هي أيضاً نفس المعاملة على مستوى الكلمة وعلى مستوى التلحين والاذاعة، وإن كانت وسائل التبليغ بالنسبة إليها أقل كلفة وأسهل في التلقي من المسرح الممثل.

بقيت الوسيلة الخامسة للتأثير وهي ما يعبر عنه في لغة السياسة بالاتصال المباشر.

هذه الطريقة تكاد تكون خاصة بالأساتذة والواعظين ولا تستنى لهم في كل وقت. فقد أصبحت الخطب مراقبة من طرف الشرطة في المساجد، وأصبحت الأقواس التي تفتح أثناء الدروس هي أيضاً مراقبة. عيون السلطة تنظر بعيون بعض الطلبة والتلاميذ أيضاً، لكل الأحزاب تنظيمات طلابية وللحزب الحاكم نصيب الأسد في هذه التنظيمات^(٣٣).

والإدارة سيف مسلول على رؤوس الأساتذة والمربين والخوف عذر شرعي عند سادتنا الفقهاء، عندما يكون الحاكم جائراً. فلا غرابة إذن أن يصمت القلم واللسان في بلادنا، وأن يصمت معها صوت الحق، وعندها تخلو الساحة إلاّ من الجرائد والمجلات الناطقة باسم النظام، والاذاعات الناطقة باسم النظام والتلفزات الناقلة لخطب النظام وصور المسؤولين عن النظام، نعمة واحدة وصوت منفرد، معاد، مكرر، ممجوج. يبقى على الأدباء والكتاب أن يدخلوا في الجوقة ليعزفوا كأخوانهم الشعراء والصحافيين الرسميين وعلى نفس الوتر وإلاّ زجّ بهم في السجون

وحرّموا من حق المواطنة والعمل. دولاب جهنمي يطحننا جميعاً في زمن المقت هذا. رقابة ذاتية على اللغة والعبارات، ورقابة سياسية على المضامين والآراء ورقابة بوليسية على الحركات والسكنات....

كيف الخلاص من عجلات الدّولاب أيّها الأدباء؟

للإجابة عن هذا التساؤل فإنني أتقدّم إليكم بالمقترحات التالية:

إذا أردنا أن تكون لنا ثقافة عربيّة ديمقراطيّة تقديميّة ومناضلة، كما يحلم بها مؤقّرنا هذا، فلا مناص من التزامنا بالخطوط التالية:

١- تنسيق وتنظيم عمليات الدفاع عن الحرّيات المكبوتة على السّاحة العربيّة، وتبني قضايا الكتاب الذين يتعرضون للاضطهاد، والتعهد بالدّفاع عنهم أمام محاكم الاستثناء وأمن الدولة، كما تفعل جمعيات الدّفاع عن حقوق الإنسان في عامة بلاد الدّنيا.

٢- التزام المؤتّم القادم بتقديم تقرير عام عن أوضاع الأدباء والكتاب في مختلف الأقطار العربيّة، وتقديم كشف بالموقوفين والمنوعين من الخروج والمحرومين من حقوقهم المدنية حتى يتسنى لاخوانهم في الأقطار الشقيقة التعرف عليهم ومناصرتهم وتنظيم حركات جديّة للدّفاع عنهم والتضامن معهم.

٣- إصدار ميثاق ثقافي لاتحاد الأدباء العرب تتبناه الاتحادات القطرية وتتعامل به على المستوى الوطني وفي نطاق التبادل بين الأشقاء والأصدقاء.

٤- تكوين رصيد مالي خاص بدعم المشاريع الثقافية الهادفة التي يتقدّم بها الأدباء والكتاب كأفراد أو كمجموعات ضمن الاتحادات القطرية الملتزمة بالانجاز.

٥- إصدار مجلة الاتحاد وتخصيص باب فيها لضبط القيم والمفاهيم الثقافية القومية الملتزمة. وشذب ما التصق بمذلول الألفاظ المتداولة من خلط وتشويه.

٦- طبع وترويج المؤلفات الأدبية والفكرية التي تدعم مسيرة التقدم الديمقراطي في الوطن العربي، مع العزم على تحديّ الموقّات الماديّة والحواجز القائمة الآن بين الأقطار.

٧- إقامة أيام دراسية تجمع اتحادات الأدباء ووزارات التربية والثقافة في مختلف الأقطار العربيّة قصد وضع مخطط عام مشترك لأسس السياسة التعليمية والتنشيط الثقافي على جميع المستويات وفي كافة الدرجات.

بذلك فقط يمكن لاتحاد الأدباء العرب أن يسمع صوته.

الدكتور عمر بن سالم

مراجع البحث

مرتبّة حسب ألفبائية الأسماء

- أبو القاسم سعد الله: منطلقات فكرية، نشر الدار العربيّة للكتاب، تونس ليبيا، ١٩٧٦.
- ارفنج كريستول: ثقافة المثقفين المضادة (دراسة). ترجمها

الإسلامية)، ص ٨٩ - ٩٥ انظر كذلك صفوه الاعشار ليريم الخامس أبواب مختلفة صم الأحرار.

٨- السح محمود فنادو، دساحة كبات الحرب، ومغلايه في حريده الرائد التونسي، عد إلى تحلل هذه الآراء في كتابنا محمود فنادو حباه، آثاره، وتمكيره الاصلاحى ص ٣٠٠ - ٣٠٦.

٩- كل محاولة للمسير بين المنعمين والمعلمين عدنا لا محد مرّازها إلا عد الراعين في السمر أنصهم. أمّا مفهوم النفاه وما حاء فيها من تحديدهات فهي تشمل كل أضاف المعلمين بما فيهم من إداريين وفسين وحرصين وعسكريين وغيرهم (انظر تحلل نظره أنطونو فرامسي في كتاب سوسولوجة النفاه لليدكور الطار اللسب: المنفعون والطمعات الاجتماعية، ص ٥٨ - ٥٩)

١٠- عد إلى دراسة الأسد محمود سويد، النفاه الوطسه وحرية الصحافة عوان هامشه المنفعين، في كتاب النفاه الوطسه في لسان على حط المواحهه، ص ١٩٣.

١١- انظر دراسة الأسد أنى القاسم سعد الله، أرمة المتعمف السورى في الوطى العربى، في كتابه منطلعات فكرية، ص ٩ - ١٣.

١٢- بدر دعوه الأسد أنى القاسم سعد الله إلى تأميم النفاه الوطسه في كتابه السابق الذكر، ص ١٥٦ وما بعدها.

١٣- ثفاه المنعمين المصادة، لأرفح كرسول، ترجمة أمين عبد الله محمود، في مجلة النفاه العالمه، العدد الحربى ٢، السه ١، المجلد ١ أفريل ١٩٨١، ص ٢٢ وما بعدها.

١٤- صمّا الصابين والرسامين والسائين صم هذه الطائمه لأن علاقات الاناج مستابه بين فئاهها مبرأ. وإن اختلف نوعه الاناج وأهمته على المستوى التنمى.

١٥- ثفاه المنعمين المصادة لكرسول، برحه أمين عبد الله محمود، المرجع السابق الذكر، ص ٢٩ فوق.

١٦- محد ذلك خاصه في المطاعات الامصاديه والماله وفي التحطط

١٧- عد إلى دراسة الذكور على سعد. العلم والممولوحا في النفاه الوطسه. موقف المفكرين من الحصاره الممولوحه، ص ٢٣٨ - ٢٤٠، في كتاب النفاه الوطسه في لسان على حط المواحهه

١٨- انظر نسيهات حان مارك سوي للوظائف العصبية في محتلم الهنات النفاه التي منها « وطبمه الاكراه التي يمارسها بعض المنعمين كناصر في الدوله أو كاطارات إداريه وساسه وقضائيه وعسكريه في كتاب سوسولوجة النفاه، تحلل د الطاهر اللسب، ص ٦٠ فوق

١٩- لسا في حاحه إلى إعطاء أمثلة هاه، فكلنا على علم بما مجرى على هذا المسوى في بلدنا المحلعه.

٢٠- حاولت بعض الأفظار العربيه إفاة مراكز علميه لاستحلاب هؤلاء ولكن الأعلبيه ما يزال معش في أوروبا وأمريكا.

٢١- لس هذا كبير مح على هؤلاء، كما بيوهم النص وإننا هو وصف لواقع موضعي ولصرف سن للعنان.

٢٢- ردّ الفعل على هذا النوع من أجهرة الاعلام أصبح ملموساً لدى الجماهير التسعه فهو يعدى عدم التصديق بما نفعله إلى سدها وفله الاهتام بما تؤكّد أو يعول

٢٣- لا تمصر هذه الحاله على قطر عربي دون قطر على ما أطر.

أمين عبد الله محمود في مجلة الثقافة العالمية. العدد التجريبي ٢، السنة ١، المجلد ١، نيسان ١٩٨١. نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

- بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تصوير دار صادر عن الطبعة الاعلامية بالقاهرة، ٥ أجزاء في مجلدين، صادر، سنة ١٣٠٣ هـ.

- خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم وتحقيق المنصف الشنوفي، تونس، ١٩٧٢.

- رالف لينتن: الأسس الثقافية للشخصية (بالفرنسية) نشر دار دينود باريس، ١٩٦٥.

- السيد ياسين: الشخصية العربية: النسق الرئيس والاناساق الفرعية (دراسة) في كتاب الذاتية العربية بين الوحدة والتنوع، نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٧٩.

- الشاذلي الفيتوري: المقومات الثقافية لوحدة المغرب حاضراً ومستقبلاً وما ينجم عنها في المجال التربوي (دراسة) ملتقى أبناء المغرب العربي مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية تونس، ١٩٨١.

- الطاهر اللبيب: سوسولوجية الثقافة، نشر معهد البحوث والدراسات العربية، الدراسات الخاصة ١٢، القاهرة، ١٩٧٨.

- علي سعد: العلم والتكنولوجيا في الثقافة الوطنية (دراسة) ضمن كتاب الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة. نشر اتحاد الكتاب اللبنانيين بيروت، ١٩٧٩ م.

- عمر بن سالم: قابادو، حياته، آثاره، وتفكيره الاصلاحى. نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٧٥ م.

- محمود سويد: الثقافة الوطنية وحرية الصحافة (دراسة) في كتاب الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة، بيروت، ١٩٧٩ م.

الهوامش

١- انظر هذا التعريف الانثروبولوجي للنفاه، صم مجموعة من المعاريف الأخرى، في كتاب د. الطاهر اللسب، سوسولوجه النفاه، ص ١٣ فوق (تعريف في روشي).

٢- الدكتور الشاذلي الفيتوري، المقومات الثقافية لوحدة العرب حاضراً ومستقبلاً وما ينجم عنها في المجال التربوي (دراسة). مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، ص ٣

٣- راف لسنون: الأسس الثقافية للسحصه، ص ٣٣ (بالعربية)

٤- د. السيد ياسين: التحصه العربية: النسق الرئيسى والاساق الفرعه، في كتاب الذاتية العربية بين الوحدة والمعدّد، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الدراسات الاجتماعية عدد ٤، ص ١٦٣ وما بعدها.

٥- د. الشاذلي الفيتوري، الشحصية النفاه المعربية، صم الدراره السامه الذكر، الصمحات ٥- ٧.

٦- عد مثلاً إلى ما كتبه خير الدين باتا في مقدمه كتابه أوم المسالك في معرفه أحوال الممالك (الأسوة الأوروبية وتقدم الغرب حديق وأساسه العدل والعلوم) ص ٩٦ وما بعدها.

٧- نص المرجع السابق، السبب الداعي للتأليف (اقتناس ما يوافق النريعه

